



سورية جرح مفتوح على اتساعه، بعد مرور ثمانى سنوات من الثورة. سقط أكثر من مليون قتيل، وتهجر حوالي عشرة ملايين، وتدمّر ثلث العمران. هل يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر وقعاً من الأرقام؟ إذا تركنا الأرقام تتحدث وحدها، فلن يجد السوري أمامه فسحة أملٍ، في ظل تخلٍّ عربي ودولي عن المسؤولية السياسية والأخلاقية تجاه هذا البلد وأهله. ولكن الثورة لا تقاس بالأرقام، لأنها حركة الشعب في التاريخ، وهي مستمرة، طالما أن الأهداف لم تتحقق.

بات في حكم العادة في كل سنة، إجراء جريدة للسنوات التي مضت، ومحاولة استشراف ما تحمله السنة المقبلة. في كل وقفةٍ، هناك شعور يخامر السوريين بأن السنة الآتية ربما تكون مختلفةً عن بقية السنوات التي انقضت. وعلى أرضية هذا الأمل، يبدأون ببناء أحلام بشأن اقتراب الفرج وخاتمة المأساة التي طالت، ولم تتوقف تداعياتها الكارثية، إلا أنه في كل سنة تمر ينخفض سقف الطموحات. والثابت اليوم أنه لم يعد أحد يضع في حسابه نهاية تامة للكارثة. وهناك إجماع بين السوريين على أن استعادة سورية كما كانت أمر مستحيل، ولكن هذا لا يمنع من الأمل بنهایة الحرب على الأرض السورية أولاً، وبعد ذلك على السوريين انتظار نوافذ أخرى، يمكن أن تنفتح على حلول. ومهما حصل، ليس أمامهم سوى استيعاب الدروس التي تعلموها على دروب النكبة. ومن هنا، فقط، يمكن لهم أن يؤسسوا لمستقبل بلدتهم.

وفي ظل الحال القائم على الأرض، لا أحد من السوريين يتواهم أن موازين القوى تبشر برحيل النظام قريباً، وذلك ليس لأنه نظامٌ تجاوز آثار الحرب، وبدأ يستعيد عافيته، وإنما لأن له وظيفة مرسومة، عليه أن يؤديها، وهذا الدور يحدّده له الروس الذين يمتلكون أوراق القوة، ويتحكمون بمقاتلـنـ النظام الأمنية والعسكرية والسياسية، فـهـمـ يـحـمـونـ الأـسـدـ، وـيـؤـمـنـونـ لهـ الغـطـاءـينـ، المـحـليـ وـالـدـولـيـ. وـسـبـبـ دـفـاعـهـمـ عـنـهـ هـوـ اـسـتـعـادـةـ رـأـسـ الـمـالـ الذـيـ صـرـفـوهـ، مـنـ أـجـلـ إـعـادـتـهـ إـلـىـ المـشـهـدـ مـنـ جـهـةـ، وـمـنـ جـهـةـ ثـانـيـةـ اـسـتـخـدـامـ سـوـرـيـةـ قـاـعـدـةـ لـهـمـ، فـيـ ظـلـ التـجـازـبـ مـعـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ وـحـلـفـ شـمـالـ الـأـطـلـسـيـ. وـيـكـفـيـ هـنـاـ

تصريح وزير الدفاع الروسي، سيرغي شويغو، بأن وزارته جربت 360 سلاحاً في سوريا. وفي جميع الأحوال، لا يمكن مقارنة حجم التأثير الروسي بنظيره الإيراني الذي بات في الدرجة الثانية من حيث النفوذ، ويتراجع تبعاً للحصار الاقتصادي المضروب على إيران.

إلى ذلك، لا أحد من السوريين يصدق أن النظام سوف يعود إلى ما كان عليه قبل ثمانية سنوات. وحتى لو عادت الأجهزة التي كان يعتمد عليها، لن يكون في وسعها أن تمارس السلطة نفسها التي كانت تتمتع بها قبل الثورة، لأن السوري كسر جدار الخوف من جانب، وعلى الجانب الآخر لم يعد لدى النظام الأدوات اللازمة لتركيز أدوات الاستبداد من جديد، وفي الوقت ذاته، لن يسمح له الروس بأن يعود إلى ماضي عهده، ومثال ذلك ما حدث في درعا أخيراً، حين حاول النظام أن يعيد نصب تمثال لحافظ الأسد في درعا البلد، وكانت النتيجة أن أبناء درعا نزلوا إلى الشارع، وهم يرددون هتافات الثورة في أول أيامها، حين انطلقت شراراتها الأولى من حوران عام 2011. وكان جديراً باللحظة أن الشرطة العسكرية الروسية هي التي قاتلت بهدئه الموقف، وهذا ما يحصل في المدن الأخرى.

مضت ثمانية سنوات على الثورة، ولكن النظام لم يتغير ويستوعب ما حصل. ومع أنه انكسر، فقد تراجع إلى الخلف نحو زمن حافظ الأسد، في حين أن السوريين يدركون أن الحل ليس بيدهم، ولكن أي حلٍ لن يكون على هوئي الأسد وروسيا وإيران.

المصادر:

العربي الجديد